

التكبرأريد أن أصِفَ التَّكَبُّرُ وَحَدَاثَةُ النِّعْمَةِ. وَلَيْسَ عِنْدِي وَصْفٌ يُرَضِّيَنِي، هَازِنًا، لَا غَاضِبًا وَيَبْقَى لِي شَيْءٌ أَتَمُّ بِهِ الْكَلَامَ فِي حَدَاثَةِ النِّعْمَةِ. أَشَدُّهَا الْحُمُقُ، ثُمَّ الْاِغْتِرَارُ بِالانتِقَالِ مِنَ الضَّعْفَةِ إِلَى الرِّفْعَةِ، ثُمَّ مُحَاوَلَةُ الْعِزَّةِ عِنْدَ النَّاسِ. الْمَتَكَبِّرُ يَنْظُرُ إِلَى أَعْطَافِهِ، حَتَّى يَسْتَضْحِكَ النَّاطِرَ، لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا خَلَا مِنْهَا مَوْضِعُ الْفَضْلِ، وَبَدَتْ غَرَائِبُهُ. حَتَّى انْشَقَّ بَنَاطِلُونُهُ، فَكَانَ عَابِسًا مِنْ فَوْقُ، فَهَالَنِي الْأَمْرُ، فَإِذَا عَقُولُهُ بِخَوَاتِمِ رَبِّهَا لَمْ تَمَسَّهَا فَائِدَةٌ، وَإِذَا أَلْسُنُهُ يَتَسَاقَطُ مِنْهَا الْحَدِيثُ كَجِلْمُودٍ مِنْ عَلٍ صَخْرٍ (حَطَّةُ السَّيْلِ . وَإِذَا عَيُونَ مَا أَوْمَضَ فِيهَا بَارِقٌ مِنَ الذِّكَاءِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «مَا أَشَدَّ عَيْتَ الدَّهْرِ يَرْفَعُ هَوْلًا مِنْ مَوَاضِعِهِمْ، لِيَفْضَحَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. وَلَوْ تَرَكَهُمْ حَيْثُ وُلِدُوا، إِنَّ لَقَبَ (بَاشَا) فِي هَذَا الْبَلَدِ أَشَدَّ إِسْكَارًا مِنْ زُجَاجَةِ الْوَيْسَكِيِّ ! يَنَالُهُ الْقَرَوِيُّ الَّذِي رَبِّي بَيْنَ الْأَنْعَامِ، ثُمَّ يَنْزِلُ مِصْرَ»، أَوْ يَطْلُعُ التَّغْرَ، يَخَالُ رَأْيُهُ أَنَّ ثِيَابَهُ تَمْشِي وَحْدَهَا فَيَطْعَى ، ثُمَّ يَطْعَى، وَيَأْتِي طَغْيَانَهُ عَلَى شَكْلِهِ الْمَضْحَكِ، فَهَذَا فَضَحَ نَفْسَهُ وَلَا يَشْعُرُ أَنَّهُ فَضَحَهَا ، وَأَغْنِيَاؤُهُمُ، اللَّيَالِي. وَلَا تَزَالُ تُقْبَلُهَا . فَيَكَلِّمُ الْمَلِكُ مِنْهُمْ الْجُنْدِي، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيَقُولُ لَهُ : «بَنِي، وَأَخِي»؟ أَلَا تَرَى سُمُو أَمِيرِ الْبِلَادِ، مَا حَظِّي بَلْتُمْ يَمِينَهُ أَحَدٌ إِلَّا خَرَجَ وَلِسَانُهُ شَاكِرٌ، وَقَلْبُهُ مُنْشَرَحٌ؟ وَلَكِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَيْكَ، لَقَدْ قَايَسْتُكَ مَعَ غَيْرِ نَظِيرٍ ! وَلَا أَطْمَعُ أَنْ تَسْمُوَ